مش شرط التالتة تكون تابتة

هاني أبوطالب- مصر

عرفته شاب في العشرين من عمره ، كان شاب بقلب طفل وتفكير رجل ناضج ، كان في سنته الثانية الجامعية ، كان من أسرة بسيطة لا هي بالفقيرة ولا هي بالغنية لأب موظف بمصلحة التأمينات ، كان له ثلاثة من الأخوة الصبيان واثنتان من الفتيان هو أكبرهم جميعًا ، وكان لذلك أثرًا كبيرًا في تنشئته ، تربى على حمل المسئولية منذ صغره ، كان يعمل في أوقات الأجازة حتى يساعد والده على الأقل في مصاريف دراسته .

منذ عامه الأول الجامعي قرر الاستقلال التام عن والده حتى يتفرغ الأخير لتربية باقي أخوته ، بدأ يوسع نشاطه في العمل ومع ذلك تابع دراسته وتفوق فيها .

كان يزور جامعته فقط في المحاضرات المهمة أو تلك السكاشن التي حضورها يحسب من درجات أعمال السنة ، وفي أحد تلك الزيارات النادرة كان يصلي في مسجد الجامعة ، خرج من المسجد وكان وقت الظهيرة والجو شديد الحرارة إذ لمح فتاة منقبة تترنح وكادت أن تسقط أرضًا فجرى عليها وأمسك بها ، وعلى الرغم من أنها كانت شبه غائبة عن الوعي رفضت أن تلمسها يده ، أجلسها في مكان بعيدًا عن أشعة الشمس وابتاع لها عصيرًا وشيكولاتة حتى تستطيع أن تعوض السعرات الحرارية المفقودة بسرعة ، رفضت أن تتناولها في البداية ولكنه أقسم عليها أنه

سيأخذ ثمنها منها فأكلت وشربت حتى شبعت وحمدت الله ، ثم شكرته كثيرًا وأبت إلا أن يأخذ ثمن ما اشتراه فأخذه على مضض وتركته وانصرفت ولكنها أخذت معها قلبه وعقله وشتات فكره ، لا يعلم ماذا حدث له ؟ غير أن عينيها لا تفارق خياله ، وصوتها لا يزال يعزف في أذنه أجمل معزوفة بالرغم من أنها لم تتحدث معه كثيرًا ، لم ينم ليلته تلك حتى الصباح .

مبكرًا في اليوم الثاني على غير عادته ذهب إلى الجامعة في نفس المكان ، كان يبحث عنها كالمجنون أو كمدمن وقد حان ميعاد الجرعة التي يأخذها ، ولكنه باء بالفشل ، لم يظهر لها ظل ، وكأن يوم الأمس كان حلمًا جميلًا لن يتكرر ، وأتى في اليوم الثاني والثالث ولكن بلا فائدة ، في اليوم الخامس وجدها قادمة من بعيد ، فهرول إليها واستوقفها وبدأ كلامه بعد إلقاء السلام بالسؤال عن صحتها ، لم تمكث كثيرًا حتى تذكرت هوية محدثها ، حمدت الله وشكرته مرة ثانية وهمَّت بالانصراف ولكنه استوقفها بإشارة من يده طالبًا أن يأخذ من وقتها خمسة دقائق فقط فوافقت على مضض فقال بجرأة لا يعرف من أين أتته ؟ :

مش هطول عليكي ، أنا أول مرة في حياتي أعمل كده ، بس من أول ثانية شفتك فيها وأنا مش عارف مالي ، أنا مش عايز حاجة غير اني أدخل البيت من بابه

سمعت منه تلك الكلمات ولم ترد ولكنه لمح دمعتين في عينيها من خلف النقاب ثم تركته وغادرت ، ثم اختفت بعد ذلك كثيرًا وكان يوميًا يبحث عنها ولكن بلا فائدة ، ولكنه لم يعلوه الكلل ولا الملل ، استطاع أن يعرف عنوان بيتها

وذهب ليقابل والدها وقص عليه القصة كاملة فكان رد والدها :

يا ابني باين عليك ابن ناس كويسين ، وراجل في زمن نادر جدا لما نقابل راجل ، بس هي مش ليك

سأله إذا كانت مرتبطة بغيره فنفى والدها ذلك وأصر على رأيه أنها لن تكون له ولا لأي أحد غيره ، لم ييأس وكرر زياراته لوالده وظل يستعطفه مرة يقابله ومرة يهاتفه ، ولكن الأب مصرًا على رأيه ، وعندما رأى إصرار الشاب على معرفة السبب أخبره أن الفتاة مريضة مرض خطير وأنها ستكون عبء على كل من يرغب في الارتباط بها ، ولكن الشاب عندما عرف ذلك لم يغير رأيه بل ازداد تمسكًا بها ، ولكن الفتاة ووالدها أخبروه أن ينساها وأنه سوف يقابل من تستحق حبه وقلبه الابيض .

مرت ثلاثة شهور لم يسناها لحظة واحدة وظل يبحث عنها ولكن لم يراها ولا مرة ، وفوجئ في مرة من المرات باتصال هاتفي من والد الفتاة يخبره بأن الفتاة تريد أن تراه ، وأخبره أنهم في المستشفى ووصف له العنوان فذهب مسرعًا ونبضات قلبه تتسارع ، ودخل عليها حجرتها فوجدها ملقاة على سرير فاشارت إليه بالاقتراب فاقترب فقالت له : على فكرة أنا كمان من أول مرة شوفتك حبيتك ، بس هتعمل ايه بحب واحدة أيامها في الدنيا معدودة ، انتبه لحياتك لو فعلًا أنا غالية عندك متوقفش حياتك عليا .... ما تنسانيش

ثم غادرت روحها الحياة ، ظل بعدها شهورًا كثيرة لا طعم للحياة ، اعتكف في بيته بدون طعام ولا شراب إلا من لقيمات تبقيه حيًا ، ولكنه بعد فترة بدأ يقتنع أن الحياة لن تقف على أحد وأيضًا تذكر وصيتها أن يلتفت لحياته وبالفعل أتم سنواته الجامعية وإلتحق بالجيش وبعدها بسوق العمل وهنا حدثت المفاجأة التي لم تكن له على الخاطر ولا ع البال ، في أول يوم له في العمل رآها ، أو بالأحرى نقول رأى شبيهة لها ، آمن حينها بمقولة "يخلق من الشبه أربعين" فتاة تشبهها في صفاتها في صوتها في حركتها وكأنها هي .

ما هي إلا أيام قلائل حتى صارح تلك الفتاة بأنه يحبها ويريد الارتباط بها فوافقت بكل سهولة ، لما رأت منه اهتمامًا وحبًا لن ترى مثله من قبل ، هو في الحقيقة رأى فيها حبيبته المتوفية ، شعر بأن الله أراد أن يعوضه عن حبه الصادق ، حبه الذي كتب عليه الموت منذ البداية ولكن الله يحيي العظام وهي رميم .

كان الشاب يعيش أسعد لحظات عمره ، قدّم لها كل ما تريده ، أحبها بصدق ، أحبها حُبَيْن حبًا لها وحبًا لفتاته المرحومة التي لم يخبرها بسرها ، ولكن الفرحة لم تدوم طويلًا ، فقد كان يمسك هاتفها ذات مرة فإذا به يرن برقم يحفظه عن ظهر قلب ، كان رقمًا لشخص يعلمه جيدًا ، سألها عن ذلك فقالت أنه صديق قديم وقالت بعض الأكاذيب التي لم يصدقها عقله ولكنه أظهر أنه يصدقها وظل يبحث ويفتش في الأمر حتى وصل لأمور فجعته فجعة أكبر من فجعته الأولى ، وجد حبيبته على علاقة بالعديد من الأشخاص ، كانت من الفتيات اللاتي يتلذذن

بمصاحبة الرجال واستنزاف أموالهن ، سقطت أمامه جميع الأقنعة وتكشفت الحقائق ، فواجهها بكل ما عرفه فلم تنكره واعترفت له أنها كانت كذلك ولكنها منذ أحبته تغيَّرت ولم تفعل أي من تلك الأشياء فصدقها قلبه ، ولكن عقله كان يقول دائمًا أنها تكذب وظل يبحث ويراقب حتى علم بالصدفة أنها لم تكن صادقة معه وأنها ما زالت على علاقة ببعض الأشخاص فانسحب بهدوء من حياتها ، تاركًا لها علاقاتها وحياتها تعيشها كما ترغب وكما يحلو لها وللمرة الثانية ينكسر قلبه وآثر أن يعيش بقية حياته هكذا يلعن الحب ويلعن حظه فيه ، وأقسم أنه لن يسلم عقله لقلبه مرة أخرى

ومرت سنتان أو ربما ثلاثة وهو على ذلك المبدأ لم يثنيه عنه أي شيء ، كانت حياته كلها للعمل وفقط ، ونجح نجاحًا كبيرًا وترقى في عمله واصبح ذو مكانة مرموقة فيه ، وأحكم إغلاق الباب على قلبه جيدًا حتى لا يذيقه الفجعة الثالثة ، ولكن القدر كان له رأي آخر ، كان يجلس في ذلك مكان هادئ تعود أن يجلس فيه ، فإذا به يلمح بجواره فتاة تبكي بكاءًا حارًا ، حاول أن يمنع نفسه ولكن فضوله كاد أن يقتله وجد نفسه يقترب منها ويقدم لها منديلًا فأخذته شاكرة وجففت دموعها وغادرت المكان وظلت عينيه متعلقة بها حتى غابت عنهما ، ظل بعدها شاردًا يحارب عقله قلبه ، وجد نفسه يوميًا يذهب إلى نفس المكان الذي كان يذهب إليه ما بين الحين والحين ، كان قلبه يمني نفسه بأنه سيجدها ، أما عقله كان يدعو ويتضرع إلى الله ألا يجدها . وفي ذلك اليوم كان ذاهبًا إلى نفس المكان بين خوفه ورجائه،

إذ به يلقاها جالسة في نفس المكان ولكنها كانت في حالة أفضل بكثير من الحالة السابقة فانفرجت أساريره، وبدون تردد وجد نفسه يلقي عليها التحية التي ردتها باستغراب واستنكار ، حاول أن يذكرها بنفسه ولكنها لم تتذكره اطلاقـًا ، ظنت أنه مجنون فتركته وانصرفت .

لم يدرِ ماذا يفعل غير أنه كان يمني نفسه بمقولة " التالتة تابتة" ظل يراقبها من بعيد وفي قلبه أمل كبير بأنه سيحظى بها هذه المرة، كان يعترض طريقها كثيرًا أملًا في أنها تسمعه وتعرف حكايته ولكنها كانت ترفض في كل مرة أكثر من المرة السابقة بل إنها هددته أنه اعترض طريقها مرة أخرى سوف تبلغ الشرطة ، طلب منها أن تجلس معه فقط لمدة نصف ساعة وبعدها لن يظهر أمامها مرة أخرى ، فوافقت على مضض وتحدد موعد اللقاء وجلس أمامها قرابة الساعة يحكي ويسرد ويقص ويقول كل ما حدث وكل ما عاشه وعاناه ، أخبرها أنه ظن أنه سيعيش بدون حب ولكنها كالعادة يقع في الحب من النظرة الأولى ووقع في حبها ، وأنه سيكون أسعد شخص على البسيطة لو قبلت به زوجًا وشاركته الباقي من حياته ، ظلت طيلة الوقت صامتة لم تنبث ببنت شفة حتى أعلن أنه الآن انتهى من عرضه وطلب منها أن تأخذ وقتها في التفكير وترد في الوقت المناسب ولكنها ابتسمت ابتسامة عريضة جدًا أوحت ببعض الأمل ، ولكنه وجدها تحمل حقيبتها وقالت وهي تنهض معلنة انتهاء ذلك اللقاء السريع : مش شرط التالتة تكون تابتة.

وانصرفت بدون سلام ولا كلام.